

جهود المختصرات التفسيرية في تقرير قواعد الربوبية: تفسير الجلالين أنموذجاً

حمزة تالي

جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

البريد: hamzatt1402@gmail.com

المستخلص

تعبّر مرحلة التقييد في العلوم عموماً عن مرحلة اكتمال البناء لتلك العلوم وبلوغها مرحلة النضج، بعد أن انطلقت من مرحلة التأسيس؛ حيث تُقتنص في هذه المرحلة الثمار المرجوة من تلك العلوم، كما تعطي الآخذ بناصية تلك القواعد الوسائل العلمية الكفيلة بتحقيق التمكن العلمي. ولا ريب أنّ أوّل ما يحرص أن يدخله التقييد: هو علم العقائد؛ لمسيح حاجة المسلمين إليه؛ لذا فقد شتمَّ الباحث عن ساعد الجد لإدراك هذه الغاية الشريفة، مستعينا بعد الله في إدراك هذا الهدف بأشرف وأوّل مصدر لتلقي العقيدة عند المسلمين، وهو القرآن الكريم، موظفاً أشهر المختصرات في التفسير، وهو: تفسير الجلالين. واللجوء إلى تفسير الجلالين خصوصاً؛ لشهرته بين المسلمين، ضف أنّ طبيعة العصر المعيش، والذي ازدحم فيه المعارف وتنوّعت فيه التخصصات، يجعل من هذه المختصرات محل إقبال غير المتخصصين - وهم السواد الأعظم من المسلمين - عليها، والتي وُضعت أصالة لتسهيل تدبّر القرآن. والمتأمل في مجريات البحث يلحظ جلياً تلك الإشارات الواضحة لتفسير الجلالين على ترسيخ قواعد الربوبية، بما لا يدع للشك: أنّ العناية العقديّة لا يقتصر على المطولات في التفسير، بل زاحمت المختصرات في تقديم الإضافة في هذا الجانب، كما تأكّد من خلال هذه الدراسة أنّ العناية بجانب الربوبية يعدّ مرحلة مهمّة للتأسيس العقدي عموماً، سواء كان ذلك مع أمة الدعوة أو الإجابة؛ بما يشحذ الهمم للعناية بهذا الجانب العقدي المهم تأصيلاً وتقعيداً، خدمة لعقيدة الإسلام وتبصيراً للمسلمين.

الكلمات المفتاحية: القواعد، الربوبية، المختصرات في التفسير

THE ROLE OF TAFSIR MUKHTASAR SCHOLARS IN INTERPRETING RUBUBIYYAH RULES: A STUDY OF THE BOOK OF TAFSIR AL-JALĀLAIN

Hamza Tali

King Saud University, Riyadh Kingdom Of Saudi
Email: hamzatt1402@gmail.com

Abstract

At the basic level in various fields of science, it generally describes the completion of the building stages of these sciences and reaching the stage of maturity. At this stage, the desired fruit of these sciences can be grasped, and this stage also provides the foundations for the scientific tools needed to achieve scientific mastery. There is no doubt that the first thing researchers want to explain is the science of faith, because it is an urgent need for Muslims. Therefore, researchers are trying to achieve this noble goal by asking for help from Allah SWT. And the first source of Muslim faith is the Koran. Specifically, the study used the book of Tafsir al-Jalālain because of its popularity among Muslims, which was written to make it easier to read the Koran. This research will clearly explore the signs for establishing the rules of Rububiyyah monotheism in the book Tafsir al-Jalālain. There is no doubt that attention to faith is not limited to tafsir books, which have extensive and detailed discussions, but concise tafsir books compete in discussing this aspect of the rububiyyah. Through this research, it is also confirmed that paying attention to the rububiyyah aspect is an important stage for the basic foundations in general, both with the preaching community and the ijabah community. What encourages researchers to pay attention to this important aspect of the faith is serving the Islamic faith and providing enlightenment to Muslims.

Keywords: Rules, Rububiyyah, Tafsir Mukhtasar.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.
أما بعد:

فإن كتاب الله هو أصل الأصول ومرجع الأدلة جميعاً، قال تعالى يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ١٧٤ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (النساء : ١٧٥)؛ لذلك اشتدَّت عناية علماء الأمة ونشطت همهم ببيانه وتفسير آياته - نظراً لكون العمل به مناهج سعادة الدارين-، واتخذوا في سبيل ذلك طرائق متنوعة في الوقوف على أسرارها؛ فلا غرو بعدها أن يتبوأ علم التفسير المكانة المرموقة من بين علوم الشريعة الشريفة؛ لأنه يتوقف عليه فهم مراد الله من كلامه، كما أنَّ حاجة الأمة إلى هذا العلم كبيرة؛ لذلك كان لأهله المكانة العلية؛ لأنَّ الناس ترجع إلى كلامهم في الوقوف على مقصود كلام ربه.

ولقد مرَّ علم التفسير كغيره من علوم الشريعة الغراء بمراحل عدة، فتراه في القرون الأولى خرج في خُلته الأثرية السالمة من الانحراف، ثم تكاثرت التفاسير، وتنوعت اتجاهات مصنفها بحسب الوجهة العقديّة

لكل مفسر. ومن ذلك التفاسير المختصرة، فقد انتشرت في المساجد، كما أن النسخ الإلكترونية منها، مما يتداوله الناس على نطاق واسع.

ولما كان القرآن الكريم من أعظم مصادر تلقي العقيدة الإسلامية اشتدت حاجة المسلمين للتفاسير عموماً، وللمختصر منها على وجه الخصوص، بُغية تحقيق مُؤمِّل كل طالب علم، وهو الرسوخ في باب الاعتقاد.

ولا شك أن طَرُق موضوع القواعد العقدية من باب المختصرات في التفسير يُعجِّل من الأخذ بناصية الرسوخ في علم العقيدة؛ لأنه يختصر الطريق في الوقوف على هذه القواعد.

كيف لا يتم ذلك، وسبيل الرسوخ في مسائل الاعتقاد يتوقف على استقراء كليات العقيدة وقواعدها، ومن ثم رد الجزئيات إلى الكليات.

ومن هذا المنطلق كان عنوان هذا البحث: جهود المختصرات التفسيرية في تقرير قواعد الربوبية - تفسير الجلالين أمودجا -

مشكلة البحث:

تميّزت هذه العصور المتأخرة بفشو التفاسير المختصرة بين المسلمين مما يتطلب مزيد العناية بهذه المختصرات لاستخراج الدرر العلمية منها، وخاصة إذا عُلم أن القرآن قبله كل طالب علم يرجو التحصيل الشرعي.

وبالنظر في تاريخ تطور مناهج العلماء في الأخذ بالعلوم وضبطها؛ لأجل تحقيق مقصد الرسوخ فيها،

يجد الناظر في تاريخ العلوم: أن إشكالية كثرة الفروع والجزئيات العلمية بسبب بُعد النَّاس عن زمن

النبوة، إضافة إلى تعقيدات الحياة؛ ألجأت أهل العلم إلى فتح مجال ومسار التقعيد في العلوم عموماً؛ للتم

جزئيات العلوم تحت قواعد عامة تكون ملاذا لطلبة العلم؛ لتخريج الجزئيات النازلة التي تدفع بها حركة

الحياة البشرية، فكان من أوائل من أسَّس لهذا العلم الشريف: أبو زيد الدبُّوسي الحنفي (430هـ)⁽¹⁾،

حيث جمع جملة من القواعد تتعلق بالفقه الإسلامي، ثمَّ توسَّع بعد ذلك التأليف ليشمل علوماً متنوعة.

ومن هذا المنطلق رأى الباحث أن تفعيل التقعيد في أبواب العقيدة من الضروريات الملحة خاصَّة في ظلّ

التدافعات المعيشة، والتي أفرزت نوازل عقدية تحمل في أكنافها من الشُّبه ما تشيب دونها مفارق

(1) انظر: آل بورنو؛ محمد صدقي بن أحمد بن محمد، الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، (بيروت: مؤسسة الرسالة العالمية، ط4، 1416هـ)، ص63.

الولدان؛ مما يستدعي ضرورة تفعيل التقعيد العقدي كوسيلة لتحقيق الرسوخ العقدي، والذي يقي صاحبه من مُضِلَّاتِ الشُّبُه، كما يُسَهِّلُ عليه التعامل مع النوازل والمستجدات في باب الاعتقاد. ولا شكَّ أنَّ طَرُقَ بابِ التقعيد من باب المختصرات التفسيرية - كما أنَّه يُسَهِّلُ لطالب العلم الوقوف على تلك القواعد- فإنَّه يعدُّ مرقاة لاكتشاف المزيد من هذه القواعد متى توجَّهتْ المهتم للغوص في المطولات التفسيرية.

ومن هنا لاحت الحاجة في اكتشاف ما يزخر به تفسير الجلالين من قواعد عقدية في باب توحيد الربوبية.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

1. كون الكتاب العزيز أعظم مصدر لتلقي العقيدة عند المسلمين.
2. الإقبال الكبير على التفاسير المختصرة من عموم المسلمين.
3. هذه الدراسة إنما تدرج في قسم الدراسات البنينة التي أثبتت التجارب نجاحها البحثية، وخاصة في خدمة التخصصات العلمية المطروقة بالبحث.
4. موضوع الدراسة يقدِّم إضافة علمية لطالب العلم، إذ تمثل الدراسة محل البحث الجانب التطبيقي في علم العقيدة، من خلال ما ترصده مباحث الدراسة من رصد لأهم القواعد العقدية المتعلقة بالربوبية من خلال القرآن الكريم.
5. الوقوف على القواعد العقدية عموماً مما يبني الملكة العلمية، ويؤهل الناظر والجامع لتلك القواعد للأخذ بناصية الرسوخ في باب العقيدة، هذا الرسوخ الذي يؤمله كل مسلم عاقل يرجو النجاة من شبه وزلل الدنيا، والفوز برضا الله وجنة الخلد في الآخرة.
6. الوقوف على هذه القواعد مما يساعد طالب العلم على إيجاد الحلول للمستجدات المتلاحقة والمتراكمة في حقل الاعتقاد، من خلال رد الجزئيات إلى الكليات العقدية.
7. وأخيراً فإنَّ هذا البحث في قواعد توحيد الربوبية لها مكانتها في باب الاعتقاد؛ لكون توحيد الربوبية هو الأصل والدليل الأكبر لتوحيد العبادة، ومعلوم أنَّ توحيد العبادة هو الغاية التي لأجلها وجد البشر. أهداف البحث:

1. الوقوف على ماهية التفاسير المختصرة.

2. معاينة أنواع التفاسير المختصرة.

3. الوقوف على طرق أهل العلم في تدوين المختصرات في التفسير.

4. الوقوف على حقيقة القواعد العقدية.

5. الوقوف على أهمية هذه القواعد.

6. استخراج أهم القواعد العقدية المتعلقة بالربوبية من خلال تفسير الجلالين.

أسئلة البحث:

1. ما المقصود بالتفاسير المختصرة؟.

2. ما أنواع التفاسير المختصرة؟.

3. ما هي الطرق التي توخاها أهل العلم في تأليف المختصرات في التفسير؟.

4. ما المقصود بالقواعد العقدية؟.

5. ما أهمية الوقوف على القواعد العقدية؟.

6. ما هي أبرز القواعد العقدية المتعلقة بتوحيد الربوبية من خلال تفسير الجلالين؟.

حدود البحث:

سيقتصر البحث على استخراج القواعد العقدية المتعلقة بقسم الربوبية من تفسير الجلالين فقط.

مصطلحات البحث:

1. التفسير: هو "علمٌ يُبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من حيث دلالاته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية" (2).

2. التفسير المختصر: هو "بيان معاني القرآن الكريم بعبارةٍ وجيزةٍ، وألفاظٍ قليلةٍ" (3).

3. القاعدة: الأمر الكلي الذي ينطبق عليه جزئيات كثيرة يفهم أحكامها منه (4).

4. توحيد الربوبية: أن يعتقد العبد أن الله هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير، الذي ربي جميع الخلق بالنعمة، وربي خواص خلقه وهم الأنبياء وأتباعهم بالعقائد الصحيحة، والأخلاق الجميلة، والعلوم النافعة،

(2) الزُّرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، (مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة)، ج2، ص3.

(3) انظر: البركة، محمد بن راشد، التفاسير المختصرة (اتجاهاتها ومناهجها)، (الرياض: كرسي القرآن وعلومه، جامعة الملك سعود، ط1، 1436هـ)، ص27.

(4) انظر: ابن السبكي؛ تاج الدين، الأشباه والنظائر، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، (بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1411هـ)، ج1، ص11.

والأعمال الصالحة⁽⁵⁾.

الدراسات السابقة:

من خلال النظر في دليل الرسائل العقدية، والمصادر البحثية المتنوعة كالمواقع المتخصصة، أو المراكز المشهورة المعتمدة في مثل هذه البحوث الأكاديمية، وبتوسيع النظر أيضاً في المكتبات سواء المكتبات المركزية للجامعات، فإن الباحث لم يظفر بدراسة مستقلة تناولت هذا الموضوع أكاديمياً، وغاية الموجود المتداول في المجال الأكاديمي لا يتطابق مع عنوان ومجال البحث، وهو (جهود المختصرات التفسيرية في تقرير قواعد الربوبية - تفسير الجلالين أمودجا-).

ومع ذلك فإن الباحث وقف على دراسات قريبة يمكن الاستفادة منها في معالجة موضوع البحث، وقد تميزت هذه الدراسات بما يلي:

1. تناولت جوانب الاختصار في التفسير ومناهجه.
2. كما قدّمت بعض الدراسات توضيحات مجملة بيّنت من خلالها اتجاهات بعض المفسرين المخالفين لأهل السنة في تفاسيرهم.
3. وركزت أخرى على التفاسير المختصرة دون غيرها.
4. وبعضها عمد إلى إقامة مقارنات علمية بين بعض التفاسير المختصرة محل البحث وغيرها، ولكن بمنهجية مبيّنة لمنهج أهل السنة والجماعة.
5. وبعضها تناولت القواعد في توحيد العبادة.

ومن هذه الدراسات ما يلي:

1. التفاسير المختصرة: دراسة في المنهج: الجلالين والوجيز في تفسير الكتاب العزيز لشبر أمودجاً: وما توصف به هذه الدراسة كونها:
أ. بحث منشور في مجلة صادرة عن كلية التربية بجامعة بغداد، العدد 204 عام 2013م، للدكتورة: نضال حنش شبار الساعدي.
ب. وتقع الدراسة في 32 صفحة تقريباً.
ج. وقد قسم الباحث دراسته إلى تسعة مباحث، وضّح من خلالها أهم ملامح التفاسير المختصرة، كما

(5) انظر: السعدي؛ عبد الرحمن بن ناصر، القول السديد في مقاصد التوحيد، (المملكة العربية السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط2، 1421هـ)، ص 19.

أكد أن ذلك إنما كان بعد الاستقراء الكامل لكتابي الجلالين، والوجيز في تفسير الكتاب العزيز لشبر.
2. التفاسير المختصرة: دراسة في المنهج: الجلالين وتفسير صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسين مخلوف أتمودجاً:

وهذه الدراسة عبارة عن:

أ. بحث منشور في مجلة كلية التربية الأساسية، الصادرة بالجامعة المستنصرية، العدد 97 عام 2017م، للدكتور: علي مجدي علاوي.

ب. وتقع في 20 صفحة تقريباً.

ج. ويمكن وصفها بكونها قريبة جداً من بحث الدكتور نضال الساعدي.

3. القواعد في توحيد العبادة وما يضافه من الشرك عند أهل السنة والجماعة جمعاً ودراسة: للطالب: محمد بن عبد الله بن علي باجسير:

أ. بحث دكتوراة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، تحت إشراف الدكتور: إبراهيم بن عامر الرحيلي.

ب. يقع البحث بعد نشره في دار الأماجد (1438هـ) في مجلدين، في حدود (1147 صفحة).

ج. وقد قسم الباحث دراسته إلى تمهيد وبابين: الباب الأول نثر من خلاله الفصول التي تبحث في قواعد توحيد الألوهية، وفي الباب الثاني: تناول القواعد التي تتعلق بما يضاف توحيد العبادة.

د. تناول الباحث بعض قواعد توحيد الربوبية لما تكلم على فصل قواعد أنواع التوحيد من الباب الأول. ومما سبق جرده من دراسات سابقة تبين الحقائق التالية:

1. أن هذه الدراسات وإن تناولت التفاسير المختصرة السالف ذكرها؛ إلا أنها لم تعرج على موضوع الدراسة والبحث.

2. كما أنها لم تتناول الدراسة الثالثة القواعد العقديّة في باب الربوبية إلا على سبيل التبعية.

3. كونها تميزت بالعموم في طرحها، دون الولوج في التفاصيل ومناقشتها.

4. الدراسة الثالثة: فإنها أُسِّست في الأصل على توحيد الألوهية، ولكن لما كان لهذا القسم ارتباط بتوحيد الربوبية، فإن الباحث نثر بعض قواعد الربوبية التي لها علاقة مباشرة بتوحيد العبادة، ومع ذلك لم يستوعب جميع قواعد الربوبية التي دل عليها القرآن، ونبه عليها أهل العلم.

5. كون هذه الدراسة إنما جاءت لتستخرج جميع القواعد العقديّة من باب الربوبية من خلال تفسير الجلالين.

ومع ذلك فقد استفدت منها في بعض إجراءات البحث وخطته ومباحثه. ولعل أهم ما يميز هذا

البحث ويفترق به عن الدراسات السابقة هو أنه سيركز على الجانب العقدي في تفسير الجلالين-، وحصرتها ومناقشتها، مع بيان قواعد باب الربوبية، والتي جاءت الإشارة إليها في هذا التفسير المختصر. منهج البحث:

يقوم هذا البحث على المنهج الاستقرائي الاستنتاجي.

البحث

الفرع الأول: تعريف الاختصار في التفسير: " أن يأتي المفسّر إلى كتاب متقدّم في التفسير فيختصره باجتزاء ما يراه مناسباً منه، وطرح ما سوى ذلك والاستغناء عنه لأيّ من الأسباب التي يذكرها، ولا يمنع هذا الاختصار من أن يزيد على الأصل شيئاً من عنده، كتتميم مسألة، أو بيان معنى، أو زيادة فكرة، وقد يكون هذا الاختصار قائماً على اعتماد أصل واحد، وكتاب مفرد، وربما عدّد الأصول ونوعها، فخرج منها جميعاً بمختصر. وقد يكون صاحب الأصل سابقاً لزمانه، وقد يكون معاصراً له، ولكن تقدّمه في التأليف، بل قد يكون مختصراً لكتابه هو نفسه، يرى أن يقرّبه للناس بصورة أوجز"⁽⁶⁾.

الفرع الثاني: تعريف قواعد الاعتقاد.

معنى قواعد الاعتقاد: اشتمل هذا المصطلح على مضاف ومضاف إليه: القواعد: مضاف، وباب الاعتقاد: مضاف إليه.

الشق الأول: معنى القواعد. والقواعد جمع قاعدة، وهي: الأساس، وقاعدة البيت: أساسه. ومنه قوله تعالى: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (البقرة: 127) ⁽⁷⁾.

والقاعدة: في اصطلاح أهل الاختصاص الأصولي: حكم كلي ينطبق على جزئيات كثيرة يفهم أحكامها منه⁽⁸⁾.

(6) الشهري، علي بن عبد الله، أسباب الاختصار في التفسير، (الكويت: جامعة الكويت، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مج34: ع116، 2019م)، ص92-93.

(7) ابن منظور، لسان العرب، ج11، ص239. وأحمد بن فارس بن زكريا القزويني؛ معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (بيروت: دار الفكر، د.ط، 1399هـ)، ج5، ص109.

(8) ابن السبكي؛ الأشباه والنظائر، ج1، ص11.

وأما القاعدة العقدية فيمكن تعريفها تعريفاً إجرائياً بكونها: حكم عقدي كلي ينطبق على جزئيات كثيرة في باب عقدي، أو أبواب.

فالحكم الكلي يكون شاملاً لجميع أبواب العقيدة، وقد يربط بباب من أبواب الاعتقاد؛ كأن يقال: قواعد الربوبية، قواعد الأسماء والأحكام، وهكذا.

الفرع الثالث: التعريف بتفسير الجلالين⁽⁹⁾.

ألّف هذا التفسير إمامان، ولقب كل واحد منهما جلال الدين، وهما: جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي.

أما جلال الدين المحلي، فهو: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أحمد المحلي. ولد بالقاهرة سنة (791 هـ) واشتغل وبرع في الفنون وألّف فيها، وكان من أهل الصلاح، يزاول التجارة. توفي سنة (864 هـ)⁽¹⁰⁾.

يليه جلال الدين السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضير السيوطي، ولد سنة (849 هـ)، نشأ يتيماً، ختم القرآن دون ثمان سنين، صنّف في شتى الفنون⁽¹¹⁾، توفي سنة (911 هـ)⁽¹²⁾.

التعريف بكتاب تفسير الجلالين: عرف هذا التفسير الذي حظي بعناية العلماء باسم: تفسير الجلالين نسبة إليهما. وقد استهل جلال الدين المحلي تفسيره من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس، ثم توفي بعد فراغه من تفسير فاتحة الكتاب، فأكمل السيوطي تفسير المحلي⁽¹³⁾.

الفرع الرابع: قواعد توحيد الربوبية.

(9) المحلي؛ جلال الدين - الجلال السيوطي، تفسير الجلالين، (القاهرة: دار الحديث، ط1، د.ت).

(10) ينظر: السخاوي؛ شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (بيروت: دار مكتبة الحياة، د.ط، د.ت)، ج7، ص 39 - 41.

(11) ينظر: الخازندار؛ أحمد - والشيباني؛ محمد إبراهيم، دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وجودها، فقد أورد فيه (1080) عنواناً ما بين مخطوط ومطبوع.

(12) ينظر: جلال الدين السيوطي؛ عبد الرحمن بن أبي بكر، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (مصر: دار إحياء الكتب، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط1، 1387 هـ)، ج1، ص 335 - 344.

(13) ينظر: سليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهرى؛ حاشية الجمل (فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب)، (بيروت: دار الفكر، د.ط، د.ت)، ج1، ص 7، ج2، ص 707 وما بعدها.

المطلب الأول: قواعد إثبات وجود الله.

القاعدة الأولى: فطر الناس مقرة بوجود الله.

تقرّر هذه القاعدة: أنّ الله جبل الخلق على الإقرار به، والميل إلى إفراده بالعبادة. والكلام على مسألة الوجود: إنّما يتوجّه إلى وجود ذاته سبحانه بصفاتهما، وليس في البحث عن الحقيقة والكُنْه⁽¹⁴⁾. ومن الأدلة العامة على هذه القاعدة: أن الرسل لم يدعوا أقوامهم إلى إثبات وجود الله؛ لأنّ هذا متقرّر في الفطرة⁽¹⁵⁾.

ومن أدلة هذه القاعدة:

قال تعالى: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (الأعراف: ١٧٢)

جاء في تفسير الجلالين: (و): اذكر (إذ): حين (أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم): بدل اشتغال مما قبله بإعادة الجار (ذرياتهم) : بأن أخرج بعضهم من صلب بعض من صلب آدم نسلا بعد نسل كنحو ما يتوالدون كالذر بنعمان يوم عرفة ونصب لهم دلائل على ربوبيته وركب فيهم عقلا. (وأشهدهم على أنفسهم): قال (ألست بربكم قالوا بلى): أنت ربنا. (شهدنا): بذلك والإشهاد؛ ل (أن): لا. (يقولوا): بالياء والتاء في الموضوعين أي الكفار. (يوم القيامة إنا كنا عن هذا): التوحيد. (غافلين): لا نعرفه⁽¹⁶⁾.

ومن أدلة القاعدة: قوله تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (الرُّوم: ٣٠)

جاء في تفسير الجلالين: (فأقم): يا محمد. (وجهك للدين حنيفا): ماثلا إليه أي أخلص دينك لله أنت ومن تبعك. (فطرت الله): خلقته. (التي فطر الناس عليها): وهي دينه أي الزموها. (لا تبدل لخلق

(14) ينظر: الجوزية؛ ابن القيم، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تحقيق: زاهر بن سالم بلفقيه، وآخرون، (الرياض: دار عطاءات العلم- بيروت: دار ابن حزم، ط2، 1441هـ)، ج2، ص65.

(15) ينظر: الأفغاني؛ شمس الدين بن محمد بن أشرف بن قيصر، جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية، (السعودية: دار الصميعة، ط1، 1416هـ)، ج1، ص132.

(16) ينظر: المحلي؛ جلال الدين - الجلال السيوطي، ص220.

الله): لدينه أي لا تبدلوه بأن تشركوا. (ذلك الدين القيم): المستقيم توحيد الله. (ولكن أكثر الناس): أي كفار مكة. (لا يعلمون): توحيد الله⁽¹⁷⁾.

قال الباحث: من خلال استعراض حجج القاعدة، تبين أن صاحب الجلالين قد أكد على مضمون هذه القاعدة، من خلال التنبيه على أن الفطر البشرية السوية مقررة بوجود الله، وأن الله قد أخذ على عبده الميثاق وهم في صلب أبيهم آدم بما تضمنته تلك الفطر المركبة في أصل الخلقة البشرية، وهذا هو الحق الذي نطق به السلف، لا كما ادّعاها أهل الكلام: من أن هذه المعرفة إنما يتوقف على المعرفة البشرية⁽¹⁸⁾، فقاموا باستبعاد تأثير الفطر البشرية في موضوع الإقرار هذا. القاعدة الثانية: قيام الأدلة على وجود الرب لا تنافي فطرية الإقرار به.

تقرّر هذه القاعدة أن سبق الفطرة بالإقرار على وجود الله لا يمنع أن تشارك الأدلة الأخرى المعتبرة في تقرير هذا الوجود، وهذا يخرج من باب تكاتف الأدلة وتعاضدها على تقرير هذه القاعدة التي تعد من الضروريات الأولية. قال ابن القيم: "ثبت أن نفس الفطرة مقتضية لمعرفته سبحانه ومحبته وإجلاله وتعظيمه والخضوع له، من غير تعليم ولا دعاء إلى ذلك، وإن لم تكن فطرة كل أحد مستقلة بتحصيل ذلك، بل يحتاج كثير منهم إلى سبب معين للفطرة مقوِّ لها، وقد بينا أن هذا السبب لا يحدث في الفطرة ما لم يكن فيها، بل يعينها ويذكرها ويقويها"⁽¹⁹⁾. ومن أدلة هذه القاعدة:

دلالة الشرع: قال تعالى: قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ قُلْ اللّٰهُ قُلْ اَفَاتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُوْنِهٖ اَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُوْنَ لِاَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْاَعْمٰى وَالْبَصِيْرُ اَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمٰتُ وَالنُّوْرُ اَمْ جَعَلُوْا لِلّٰهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوْا كَخَلْقِهٖ فَتَشَبَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّٰهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوٰحِدُ الْقَهُّوْرُ (الرَّعَد : ١٦)
جاء في تفسير الجلالين: (قل): يا محمد لقومك. (من رب السماوات والأرض): إن لم يقوله لا جواب غيره. (قل): لهم. (أفاتخذتم من دونه): أي غيره. (أولياء): أصناما تعبدونها. (لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا): وتركتهم مالكما استفهام توبيخ. (قل هل يستوي الأعمى والبصير): الكافر والمؤمن. (أم هل

(17) ينظر: المحلي؛ جلال الدين - الجلال السيوطي، ص 535.

(18) ينظر: ابن أحمد؛ عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، تحقيق: عبد الكريم عثمان، (مصر: مكتبة وهبة، ط3، 1416هـ)، ص 39.

(19) ينظر: الجوزية؛ ابن القيم، شفاء العليل، ج2، ص 456.

تستوي الظلمات): الكفر. (والنور): الإيمان لا. (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق): أي خلق الشركاء بخلق الله. (عليهم): فاعتقدوا استحقات عبادتهم بخلقهم استفهام إنكار أي ليس الأمر كذلك ولا يستحق العبادة إلا الخالق. (قل الله خالق كل شيء): لا شريك له فيه فلا شريك له في العبادة. (وهو الواحد القهار): لعباده⁽²⁰⁾.

دلالة العقل: قال تعالى: *أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ* (الطور: 35) جاء في تفسير الجلالين: (أم خلقوا من غير شيء): من غير خالق. (أم هم الخالقون): أنفسهم ولا يعقل مخلوق بغير خالق ولا معدوم يخلق فلا بد لهم من خالق هو الله الواحد فلم لا يوحّدونه ويؤمنون برسوله وكتابه⁽²¹⁾.

قال الباحث: من خلال استعراض أدلة القاعدة، تؤكد كيف أنّ صاحب الجلالين قد وافق على مضمون القاعدة: وأنّ ثمة أدلة خارج الفطرة تؤكد وجود الرب؛ سواء كانت هذه الأدلة شرعية محضة، أو شرعية عقلية.

المطلب الثاني: قواعد في ربوبية الله جل في علاه.

القاعدة الأولى: توحيد الربوبية أقرت به الخلائق كلها، ولم يجحد إلا الشذاذ من البشر. تشهد هذه القاعدة بما صرّحت به الأدلة: من اعتراف جميع البشرية وإقرارها بربوبية الله تعالى على هذا الوجود، وفي هذا يقول ابن أبي العز الحنفي: "وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: *قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ شَكَّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ (إِبْرَاهِيمَ* (10)⁽²²⁾.

(20) ينظر: المحلي؛ جلال الدين - الجلال السيوطي، ص 324.

(21) ينظر: المحلي؛ جلال الدين - الجلال السيوطي، ص 699.

(22) ينظر: الحنفي؛ ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: أحمد شاكر، (السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية، ط 1، 1418هـ)، ج 1، ص 26.

ولما كان هذا الضرب من التوحيد مغروسا في الفطر وملازما لها، لم يأت إنكاره إلا على وجه العناد والاستكبار، يقول الشيخ حافظ الحكمي: "توحيد الربوبية لم ينكره أحد إلا مكابرة؛ كفرعون، وغرود، والثنوية الذين اعتقدوا للوجود خالقين اثنين تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا"⁽²³⁾. وقد حفل الذكر القرآني ببيان هذه القاعدة، خاصة عند استعراض المجادلات والمناظرات التي دارت بين الأنبياء وأقوامهم، والتي فيها أن الله حجج المشركين من خلال ما هو مستقر عندهم من إقرارهم بتوحيد الربوبية، وإلزامهم بتوحيد العبادة، كما جاءت الأدلة مصرحة: على أن كل الأسئلة الواردة في القرآن في موضوع الربوبية إنما هي أسئلة تقرير:

قال تعالى: **وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُوْلُنَّ اللّٰهُ فَآتٰنِ يُؤْفِكُوْنَ (العنكبوت : ٦١)**

جاء في تفسير الجلالين: (ولئن): لام قسم. (سألتهم): أي الكفار. (من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون): يصرفون عن توحيده في إقرارهم بذلك⁽²⁴⁾. قال الباحث: فقد أكد صاحب الجلالين ما سطرته أدلة القاعدة من أن موضوع الإقرار بتوحيد الربوبية محل تسليم وإقرار من جميع الفئات البشرية التي نزلت عليهم دعوة الرسل، فيكون بذلك قد وافق على مضمون هذه القاعدة.

القاعدة الثانية: توحيد الربوبية لا يتم إلا بإثبات القدر. الإيمان بالقدر من أصول التوحيد العلمي الكبرى؛ لأن تحقيقه يعني تحقيق جملة لا يستهان بها من معاني الربوبية، فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده؛ ولذلك قال الإمام أحمد: القدر قدرة الله⁽²⁵⁾، واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من الإمام أحمد غاية الاستحسان، وقال: إنه شفى بهذه الكلمة وأفصح بها عن حقيقة القدر⁽²⁶⁾.

(23) ينظر: الحكمي؛ حافظ بن أحمد بن علي، معارج القبول بشرح سلم الوصول، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، (الدمام: دار ابن القيم، ط1، 1410هـ)، ج2، ص402.

(24) ينظر: المحلي؛ جلال الدين - الجلال السيوطي، ص529.

(25) ينظر: الخلال؛ أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد البغدادي الحنبلي، السنة، تحقيق: عطية الزهراني، (الرياض: دار الراجعية، ط1، 1410هـ)، ج3، ص544.

(26) ينظر: الجوزية؛ ابن القيم، طريق المهجرتين وباب السعادتين، تحقيق: محمد أجمل الإصلاححي وزائد بن أحمد النشيري، (الرياض: دار عطاءات العلم - بيروت: دار ابن حزم، ط4، 1440هـ)، ج1، ص196-197.

فالمتمثل لكلام الإمام أحمد يجد أنه حصر القدر في القدرة، والقدرة من معاني ربوبيته سبحانه؛ لأنها فعله، وكما مرَّ أن معاني توحيد الربوبية إنما تدور في فلك أفعال الرب سبحانه. ومن الأدلة التي توضح هذه القاعدة:

قال تعالى: الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا (الْقُرْآن : ٢)

جاء في تفسير الجلالين: (الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء): من شأنه أن يخلق. (فقدرة تقديرا): سواء تسوية⁽²⁷⁾.

قال الباحث: والناظر في كلام صاحب الجلالين على أدلة هذه القاعدة، يجد ذلك الارتباط الوثيق بين موضوع توحيد الربوبية وباب القدر، وكيف أن النصوص جاءت لتؤكد قوة العلاقة بين أفعال الله المتعلقة بربوبيته لخلقه وموضوع القضاء والقدر، وهذا الذي أبان عنه صاحب الجلالين ولم يفوت الفرصة في بيان هذه الآصرة بين البابين؛ فيكون قد وافق من خلال كلامه لأهل السنة، ومقررا بالنظر إلى بيانه لمقصود القاعدة.

القاعدة الثالثة: حقيقة الفوقية المطلقة للرب جل وعلا والتي هي من خصائص الربوبية وهي المستلزمة لعظمة الرب جل جلاله.

تقرّر هذه القاعدة أن الربوبية تقتضي مباينة الله لخلقه، وهذه القاعدة أحد المحطات التي من خلالها يتأكد تثبيت العلاقة بين أقسام التوحيد، كما سلفت الإشارة إلى ذلك؛ فهي تثبت العلاقة بين الربوبية والأسماء والصفات في أشرف قواعده: وهي مسألة العلو. وهذه القاعدة من أشرف وأعظم قواعد الربوبية، والتي تتضمن اعتقاد مباينة الرب للمربوب، قال ابن القيم: "حقيقة الفوقية المطلقة التي هي من خصائص الربوبية، وهي المستلزمة لعظمة الرب جل جلاله، وحطّها إلى كون قدره فوق قدر بني آدم، وأنه أشرف منهم"⁽²⁸⁾.

وعليه: فمن ادّعى من أصحاب الأديان والطوائف المنحرفة أن الرب قد حلّ أو اتّحد بخلقه؛ فإنما قد أخذ بناصية الكفر بالربوبية، وهذا من الكفر المعلوم عند جميع أهل الملل.

(27) ينظر: المحلي؛ جلال الدين - الجلال السيوطي، ص 470.

(28) ينظر: الجزوية؛ ابن القيم، الصواعق المرسلّة على الجهمية والمعتلة، تحقيق: حسين بن عكاشة، وآخرون، (بيروت: دار ابن حزم، ط 1، 1442هـ)، ج 1، ص 40.

وحقيقة هذا القول يفضي إلى تعطيل الرب عن أخص صفات الربوبية: كالخلق والرزق والملئ والتدبير، كما يلزم عنه لوازم عقديّة غاية في الخطورة، ك: مسألة قدم العالم، وحدث العالم. قال ابن القيم رحمه الله: " إثبات ربوبيته عز وجل للعالم، فإنّ الربوبية المحضة تقتضي مباينة الرّب للعالم بالذات، كما باينهم بالربوبية وبالصفات والأفعال. فمن لم يثبت ربّاً مبيناً للعالم فما أثبت ربّاً، فإنّه إذا نفى المباينة لزمه أحد أمرين لزوماً لا انفكاً له عنه البتة: إمّا أن يكون هو نفس هذا العالم، وحينئذٍ يصحّ قوله، فإنّ العالم لا يباين ذاته ونفسه. ومن هاهنا دخل أهل الوحدة، كانوا معطلّة أوّلاً، وإتحاديّة ثانياً. وإمّا أن يقول: ما ثمّ ربّ يكون مبيناً ولا محايثاً، ولا داخلياً ولا خارجاً، كما قالت الدهرية المعطلّة للصانع" (29).

والنصوص قد أبطلت هذا الضلال من أصله، من خلال إثباتها لتمايز الخالق عن المخلوق: قال تعالى: **إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (مريم: ٩٤)**

جاء في تفسير الجلالين: (إن): أي ما. (كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا): ذليلاً خاضعاً يوم القيامة منهم عزيز وعيسى. (لقد أحصاهم وعدهم عدا): فلا يخفى عليه مبلغ جميعهم ولا واحد منهم (30).

قال الباحث: قد أحسن صاحب الجلالين بالتمثيل للدليل القاعدة، حين مثّل بالمسيح وعزير؛ لأنّ أهل الكتاب ادعت فيهم الألوهية، والقرآن كذبهم، وبين كيف أنّهم من جملة عباد الله الذين خصّوا بالنبوة والكتاب، ويكون فيه إبطال لقول الحلولية، وتثبيت للمعتقد الحق من مباينة الرب لخلقهم، فيكون صاحب الجلالين قد وافق على مضمون القاعدة التي تؤكد على ضرورة الاعتقاد أنه ليس ثمة اتصال بين الذاتين، وأنّ الواجب العقدي يحتمّ اعتقاد التمايز بين الذاتين.

القاعدة الرابعة: ربوبية الله مستلزمة لأوليته.

(29) ينظر: الجوزية؛ ابن القيم، مدارج السالكين في منازل السائرين، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، وآخرون، (الرياض: دار عطاءات العلم - بيروت: دار ابن حزم، ط2، 1441هـ)، ج1، ص97.
(30) ينظر: المحلي؛ جلال الدين - الجلال السيوطي، ص405.

الرب لا يكون ربًّا إلا إذا اتَّصف بالأولية، وكان أوَّلًا؛ لأنَّ الأولية من خصائصه سبحانه التي لا يشاركه فيها أحد. وقطعا للتسلسل: فلا بد من الخالق الذي أبدع المخلوقات غير مسبوق بعدم أن يكون هو الأول الذي تنتهي إليه المخلوقات المسبوقة بعدم.

وقد دلَّ الشرع على أن الله هو الأول، كما في قوله تعالى: □ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّهْرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (الحديد : ٣)

جاء في تفسير الجلالين: (هو الأول): قبل كل شيء بلا بداية. (والآخر): بعد كل شيء بلا نهاية. (والظاهر): بالأدلة عليه. (والباطن): عن إدراك الحواس⁽³¹⁾.

القاعدة الخامسة: الربوبية قسمان: عامة وخاصة.

تؤكد هذه القاعدة ما دلت عليه النصوص من كون الربوبية تنقسم إلى:

أولاً: العامة: ودليل هذا القسم: قوله تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (الفاتحة : ٢)

جاء في تفسير الجلالين: (الحمد لله): جملة خبرية قصد بها الثناء على الله بمضمونها، على أنه تعالى مالك لجميع الحمد من الخلق، أو مستحق لأن يحمده. والله علم على المعبود بحق. (رب العالمين): أي مالك جميع الخلق من الإنس والجن والملائكة والدواب وغيرهم وكل منها يطلق عليه عالم يقال عالم الإنس وعالم الجن إلى غير ذلك وغلب في جمعه بالياء والنون أولي العلم على غيرهم وهو من العلامة لأنه علامة على موجدته⁽³²⁾.

وخاصة: ودليلها: قوله تعالى: □ قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (الأعراف : ١٢٢)

جاء في تفسير الجلالين: (رب موسى وهارون) لعلمهم بأن ما شاهدوه من العصا لا يتأتى بالسحر⁽³³⁾.

المطلب الثالث: قواعد فيما يناقض توحيد الربوبية.

القاعدة الأولى: الاعتقاد في الأسباب شرك في الربوبية.

(31) ينظر: المحلي؛ جلال الدين - الجلال السيوطي، ص 718.

(32) ينظر: المحلي؛ جلال الدين - الجلال السيوطي، ص 2.

(33) ينظر: المحلي؛ جلال الدين - الجلال السيوطي، ص 209.

الأدلة الشرعية دلّت أنّ ثبوت الأسباب وتأثيرها بإذن الله لا يقدر في الربوبية، يقول الإمام ابن تيمية: "وأما إثبات الأسباب التي لا تستقل بالأثر، بل تفتقر إلى مشارك معاون، وانتفاء معارض مانع، وجعلها مخلوقة لله، فهذا هو الواقع الذي أخبر به القرآن، ودل عليه العيان والبرهان؛ فإن ذلك مما يبين أنه ليس في المخلوقات ما يستقل بمفعول من المفعولات"⁽³⁴⁾.

فمن خلال كلام شيخ الإسلام يتبيّن أنّ تأثير الأسباب سواء كانت كونية أو شرعية يتوقف على إذن الرب؛ ولذلك لا يحصل المسبب بها على وجه الاستقلال؛ والسر في ذلك أنّ المؤثر التام هو إرادة الله الكونية القدرية، ومشيتته سبحانه النافذة، يقول الإمام الشاطبي: "إذ كان واجبا على كل مؤمن أن يعتقد أنّ الأسباب غير فاعلة بأنفسها، وإنما الفاعل فيها مسببها سبحانه؛ لكن عادته في خلقه جارية بمقتضى العوائد المطردة، وقد يخرقها إذا شاء لمن شاء، فمن حيث كانت عادة اقتضت الدخول في الأسباب، ومن حيث كانت الأسباب فيها بيد خالق المسببات اقتضت أن للفاعل أن يفعل بها وبدونها"⁽³⁵⁾.

وهذا التقرير هو الذي يجر إلى هذه القاعدة محل الدراسة؛ لأنها تقرّر: أنّ تأثير الأسباب في المسببات بذاتها بدون توسُّط قدرة الله ومشيتته يعدُّ من قبيل الشرك في الربوبية؛ لأنّ صاحب هذا المعتقد: اعتقد مشاركة الأسباب لله تعالى في القدرة والتأثير والخلق والإيجاد.

ولهذه القاعدة أدلتها: قال تعالى: □ بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ أَيْ يَكُوْنُ لَهُ وُلْدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صُحْبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (الأنعام: 101)

جاء في تفسير الجلالين: هو (بديع السماوات والأرض): مبدعهما من غير مثال سبق. (أنى): كيف. (يكون له ولد ولم تكن له صاحبة): زوجة. (وخلق كل شيء): من شأنه أن يخلق. (وهو بكل شيء عليم)⁽³⁶⁾.

(34) ينظر: ابن تيمية؛ أحمد بن عبد الحليم، درء التعارض العقل والنقل، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط2، 1411هـ)، ج9، ص348: (348/9).

(35) ينظر: أبو إسحاق الشاطبي؛ إبراهيم بن موسى بن محمد، الموافقات في أصول الفقه، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، تقديم: بكر بن عبد الله أبو زيد، (مصر: دار ابن عفا، ط1، 1417هـ)، ج1، ص206-207.

(36) ينظر: المحلي؛ جلال الدين - الجلال السيوطي، ص180.

قال الباحث: اختصاص الرب بالخلق والإبداع يعدّ أصلاً عظيماً من أصول الإسلام، وقد قرّر صاحب الجلالين من خلال تفسيره لأدلة القاعدة هذا الأصل: من خلال تخصيص الخلق به سبحانه سواء تعلق ذلك بالأسباب أو المسببات، وكذلك الإبداع والإيجاد، وهذا ما يصب في موضوع ومضمون القاعدة: من أنّ الأسباب وإن كان لها تأثير كوني؛ إلا أنّها غير مستقلة ولا تملك التأثير الحقيقي؛ لكونها مدبّرة ومصرّفة بخلق الله لها، وكون مشيئته هي التي جعلتها مؤثرة.

القاعدة الثانية: الشرك هضم لعظمة الربوبية.

تؤكد هذه القاعدة على خطورة الشرك، وأنّ من مظاهر هذه الخطورة وسماتها أنه هضم لمقام الربوبية، ويبيّن الإمام ابن القيم رحمه الله وجه دلالة هذه القاعدة فيقول: "فإنّ المشرك إمّا أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبّر أمر العالم من وزير أو ظهير أو عون، وهذا أعظم التنقيص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته، وإما أن يظن أن الله سبحانه إنّما تتم قدرته بقدرته الشريك، وإما أن يظن بأنه لا يعلم حتى يعلمه الواسطة، أو لا يرحم حتى يجعله الواسطة يرحم، أو لا يكفي عبده وحده، أو لا يفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده الواسطة، كما يشفع المخلوق عند المخلوق فيحتاج أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع، وانتفاعه به، وتكثره به من القلة، وتعززه به من الذلة، أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة أن ترفع تلك الحاجات إليه، كما هو حال ملوك الدنيا، وهذا أصل شرك الخلق.

أو يظن أنه لا يسمع دعاءهم لبعده عنهم حتى يرفع الوسائط ذلك، أو يظن أنّ للمخلوق عليه حقا فهو يقسم عليه بحق ذلك المخلوق عليه، ويتوسل إليه بذلك المخلوق كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعز عليهم ولا يمكنهم مخالفتهم، وكل هذا تنقص للربوبية، وهضم لحقها، ولو لم يكن فيه إلا نقص محبة الله تعالى، وخوفه، ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه من قلب المشرك بسبب قسمته ذلك بينه سبحانه وبين من أشرك به، فينقص ويضعف أو يضمحل ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء بسبب صرف أكثره أو بعضه إلى من عبده من دونه... فالشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه، والتنقص لازم له ضرورة شاء المشرك أم أبي" (37).

ولهذه القاعدة أدلتها، والتي تعبر عن مظاهر هضم الربوبية.

(37) ينظر: الجوزية؛ ابن القيم، إغاثة اللهفان عن مصائد الشيطان، تحقيق: محمد عزيز شمس، وآخرون، (الرياض: دار عطاءات، بيروت: دار ابن حزم، ط3، 1440هـ)، ج1، ص103-104.

المظهر الأول: أنه ما حصل الانحراف في توحيد الألوهية إلا بعد التقصير في توحيد الربوبية. قال تعالى: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (يونس : ٣٢).

جاء في تفسير الجلالين: (قل): لهم. (من يرزقكم من السماء): بالمطر. (والأرض): بالنبات. (أمن يملك السمع): بمعنى الأسماع أي خلقها. (والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر): بين الخلائق. (فسيقولون): هو. (الله فقل): لهم. (أفلا تتقون): فتؤمنون. (فذلكم) الفاعل لهذه الأشياء (الله ربكم الحق) الثابت (فماذا بعد الحق إلا الضلال) استفهام تقرير أي: ليس بعده غيره، فمن أخطأ الحق وهو عبادة الله وقع في الضلال. (فأنى): كيف (تصرفون) عن الإيمان مع قيام البرهان⁽³⁸⁾.

المظهر الثاني: ومن مظاهر ذلك: إساءة الظن بالله، والذي يعد من أعظم الروافد الموقعة في شبك الشرك بالله.

قال تعالى: وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ ذَائِرَةُ السَّوْءِ وَعَظِيبٌ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (الفتح : ٦). جاء في تفسير الجلالين: (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء): بفتح السين وضمها في المواضع الثلاثة ظنوا أنه لا ينصر محمدا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. (عليهم ذائرة السوء): بالذل والعذاب. (وغضب الله عليهم ولعنهم): أبعدهم. (وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا): مرجعا⁽³⁹⁾.

قال الباحث: تؤكد أدلة القاعدة التي شرحها صاحب الجلالين أن وقوع الشرك من المشركين مع ثبوت إقرارهم بربوبية الله في الجملة ينبئ عن تقصير منهم وهضم في جناب الربوبية؛ لأن الأدلة أكدت في مضامينها على قاعدة التلازم بين الربوبية والألوهية؛ إذ لو كان تحقيقهم للربوبية على الوجه المطلوب لما تخلفوا عن إفراد الله بالعبادة، كما تؤكد بقية مظاهر هضم الربوبية هذا الأصل العام والقاعدة المطردة في التلازم بين ربوبية الله وألوهيته.

(38) ينظر: المحلي؛ جلال الدين - الجلال السيوطي، ص 271.

(39) ينظر: المحلي؛ جلال الدين - الجلال السيوطي، ص 679.

الخلاصة

- أحمد الله على نعمة التمام هذه، والتي تكللت بالنتائج التالية:
1. عناية القرآن بالتوكيد على قواعد الدين عموماً والعقيدة خصوصاً، خاصة ما تعلق بالربوبية التي تعد محل القبول عند كل الطوائف البشرية، وهذه العناية أكدتها المختصرات في التفسير، ومنها: تفسير الجلالين.
 2. تنوعت المحاور التي مسَّها التعميد في باب الربوبية من خلال تفسير الجلالين، حيث توزَّع التعميد على ثلاثة محاور رئيسية: إثبات وجود الله، وربوبية الله، وما يناقض توحيد الله.
 3. اندرج تحت: إثبات وجود الله قواعد منها:
أ. فطر الناس مقرة بوجود الله.
ب. قيام الأدلة على وجود الرب لا تنافي فطرية الإقرار به.
 4. وأما في ربوبية الله، فقد جاد النظر في كلام صاحب الجلالين بعدة قواعد، منها:
أ. توحيد الربوبية أقرت به الخلائق كلها، ولم يجحده إلا الشذاذ من البشر.
ب. توحيد الربوبية لا يتم إلا بإثبات القدر.
ج. حقيقة الفوقية المطلقة للرب جل وعلا والتي هي من خصائص الربوبية وهي المستلزمة لعظمة الرب جل جلاله.
د. ربوبية الله مستلزمة لأوليته.
هـ. الربوبية قسمان: عامة وخاصة.
 5. أما فيما يخص ما يناقض توحيد الربوبية، فقد اندرج تحته من القواعد:
أ. الاعتقاد في الأسباب شرك في الربوبية.
ب. الشرك هضم لعظمة الربوبية.
 6. اتضح من خلال البحث أنَّ مسائل العقيدة تشكِّل منظومة في غاية الترابط والانسجام، بحيث يأخذ كل موضوع عقدي بطرف الموضوع الآخر لقوَّة وشدَّة التلازم بينها.
 7. أكدت الدراسة على أهمية تمييز إقرار جميع البشر بموضوع الربوبية بالدعوة إلى الله، سواء في الدعوة للإسلام بالنسبة لأُمَّة الدعوة، أو تصحيح الانحرافات العقدية لأُمَّة الإجابة.
 8. كشفت الدراسة أهمية التعميد العقدي في ضبط مسائل العقيدة.

فهرس المصادر

- Abū Ishāq al-Syātibī, Ibrāhīm bin Mūsā bin Muḥammad. *Al-Muwāfaqāt fī Uṣūl al-Fiqh*. Cet. I. Miṣr: Dār Ibn ‘Āffān, 1417 H.
- al-Azharī, Sulaimān bin ‘Umar bin Maṣṣūr. *Hāsyiah al-Jamal (Futūḥāt al-Wahhāb bi Tauḍīḥ Syarḥ Manhaj al-Ṭullāb)*. Bairūt: Dār al-Fikr, t.th.
- Al-Bābānī, Ismā’īl Bāsyā bin Muḥammad Amīn bin Mīr Salīm. *Hadiyyah al-Ārifīn fī Asmā’ al-Muallifīn wa Āsār al-Muṣannifīn*. Iṣṭanbūl: Wakālah al-Ma’ārif, 1955 M.
- Al-Barakah, Muḥammad bin Rāsyid. *Al-Tafāsīr al-Mukhtaṣar*. Cet. I. al-Riyād: Jāmi’ah al-Malik Su’ūd, 1436 H.
- Al-Ḥabsyī, ‘Abdullāh bin Muḥammad. *Jāmi’ al-Syurūḥ wa al-Ḥawāsyī*. Cet. I. Al-Mamlakah al-‘Arabiyyah al-Su’ūdiyyah: Dār al-Minhāj, 1439 H.
- Al-Ḥanafī, Ibn Abī al-‘Izz. *Syarḥ al-‘Aqīdah al-Ṭahāwiyyah*. Cet. I. Al-Su’ūdiyyah: Wizārah al-Syu’ūn al-Islāmiyyah, 1418 H.
- Al-Ḥukmī, Ḥāfiz bin Aḥmad bin ‘Alī. *Ma’ārij al-Qabūl bi Syarḥ Sullam al-Wuṣūl*. Cet. I. Al-Dammām: Dār Ibn al-Qayyim, 1410 H.
- Al-Jauziyyah, Ibn al-Qayyim. *Al-ṣawā’iq al-Mursalāh ‘alā al-Jahmiyyah wa al-Mu’atṭilah*. Bairūt: Dār ibn Ḥazm, 1442 H.
- Al-Jauziyyah, Ibn al-Qayyim. *Igāsah al-Lahafān ‘an Maṣāid al-Syaiṭān*. Al-Riyād: Dār ‘Aṭā’āt, Bairūt: Dār ibn Ḥazm, 1440 H.
- Al-Jauziyyah, Ibn al-Qayyim. *Madārij al-Sālikīn fī Manāzil al-Sā’irīn*. Cet. II. Bairūt: Dār ibn Ḥazm, 1441 H.
- Al-Jauziyyah, Ibn al-Qayyim. *Syifā’ al-‘Alīl fī Masāil al-Qaḍā’ wa al-Qadr wa al-Ḥikmah wa al-Ta’līl*. Cet. II. Bairūt: Dār ibn Ḥazm, 1441 H.
- Al-Jauziyyah, Ibn al-Qayyim. *Ṭarīq al-Hijratain wa Bāb al-Sa’ādatain*. Cet. IV. Bairūt: Dār ibn Ḥazm, 1440 H.
- Al-Kafwī, Abū al-Baqā’. *Al-Kulliyāt*. Bairūt: Muassasah al-Risālah, t.th.
- Al-Khalāl, Abū Bakr Aḥmad bin Muḥammad bin Hārūn bin Yazīd al-Bagdādī al-Hanbalī. *Al-Sunnah*. Cet. I. al-Riyād: Dār al-Rāyah, 1410 H.
- Al-Maḥallī, Jalāl al-Dīn – al-Jalāl al-Suyūṭī. *Tafsīr al-Jalālain*. Cet. I. al-Qāhirah: Dār al-Ḥadīṣ, t.th.
- al-Naisabūrī, Muslim bin Hajjāj bin Muslim al-Qusyairī. *Ṣaḥīḥ Muslim*. Cet. I. Turki: Dār Ṭūq al-Najāh, 1433 H.
- Al-Qaṣṭanīnī, Muṣṭafā ‘Abdullāh. *Kasyf al-Zunūn ‘an Asāmi al-Kutub wa al-Funūn*. Cet. I. London: Mu’assasah al-Furqān li al-Turās al-Islāmī, 1443 H.
- al-Qazwīnī, Aḥmad bin Fāris bin Zakariyyā. *Mu’jam Maqāyīs al-Lughah*. Bairūt: Dār al-Fikr, 1399 H.
- Al-Sa’dī, ‘Abd al-Rahmān bin Nāṣir. *Al-Qaul al-Sadīd fī Maqāṣid al-Tauḥīd*. Cet. II. Al-Mamlakah al-‘Arabiyyah al-Su’ūdiyyah: Wizārah al-Syu’ūn al-Islāmiyyah, 1421 H.
- Al-Sakhāwī, Syams al-Dīn Abū al-Khair Muḥammad bin ‘Abd al-Rahmān bin Muḥammad. *Al-Daw’ al-Lāmi’ li Ahl al-Qarn al-Tāsi’*. Bairūt: Dār Maktabah al-Ḥayāḥ, t.th.

- Al-Suyūṭī, Jalāl al-Dīn ‘Abd al-Raḥmān bin Abī Bakr. *Bugyah al-Wu’āh fī Ṭabaqāt al-Lugawiyyīn wa al-Nuḥāh*. Libnān: al-Maktabah al-‘Aṣriyyah, t.th.
- Al-Suyūṭī, Jalāl al-Dīn ‘Abd al-Raḥmān bin Abī Bakr. *Husn al-Muḥāḍarah fī Tārīkh Miṣr wa al-Qāhirah*. Cet. I. Miṣr: Dār Iḥyā al-Kutub, 1387 H.
- Al-Syahrī, *Asbāb al-Ikhtiṣār fī al-Taḥfīr*. Al-Kuwait: Jāmi’ah al-Kuwait, Majallah al-Syarī’ah wa al-Dirāsāt al-Islāmiyyah, (2019).
- Al-Ṭabarī, Ibn Jarīr. *Tafsīr al-Ṭabarī: Jāmi’ al-Bayān ‘an Tafsīr Āi al-Qur’ān*. Cet. I. al-Qāhirah: Dār al-Hijr, 1422 H.
- Al-Zabīdī, Murtaḍā. *Tāj al-‘Urūs min Jawāhir al-Qāmūs*. Al-Kuwait: Wizārah al-Irsyād wa al-Anbā’, 1422 H.
- Ibn al-Subkī, Tāj al-Dīn. *Al-Asybah wa al-Nazā’ir*. Cet. I. Bairūt: Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, 1411 H.
- Ibn Manzūr, Muḥammad bin Mukram. *Lisān al-‘Arab*. Cet. III. Bairūt: Dār Ṣādir, 1414 H.
- Ibn Taimiyyah, Aḥmad bin ‘Abd al-Ḥalīm. *Dar’u al-Ta’arūḍ al-‘Aql wa al-Naql*. Cet. II. al-Riyāḍ: Jāmi’ah al-Imām Muḥammad bin Su’ūd al-Islāmiyyah, 1411 H.
- Jamāl al-Dīn Abū al-Maḥāsīn Yūsuf bin Gazzī Bardī bin ‘Abdillāh al-Zāhirī. *Al-Nujūm al-Zāhirah fī Mulūk Miṣr wa al-Qāhirah*. Miṣr: Dār al-Kutub, t.th.
- Kaḥālah, ‘Umar Riḍā. *Mu’jam al-Muallifīn*. Bairūt: Dār Iḥyā li al-Turāṣ, t.th.
- Makhlūf, Muḥammad bin Muḥammad bin ‘Umar bin ‘Alī bin Sālim. *Syajarah al-Nūr al-Zakiyyah fī Ṭabaqāt al-Mālikiyyah*. Cet. I. Libnān: Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, 1424 H.